أبو هلال العسكري

بين البلاغة والنقد

للأستاذ عبد العزيز قلقيلة

تقدمت بهذه الدراسة إلى أستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم بك سلامة أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بكلية دار العلوم عام ١٩٤٩ فظفرت منه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى

وأنا أهديها إليه على صفحات الرسالة الغراء ، تحية تقدير ووفاء وتهنئة بظهور كتابه الجديد الخصب «تيارات أدبية بين الشرق والغرب» ع . ق

تمهيد :

هذا بحث تكلمت فيه عن أبي هلال — في كتابه «الصناعتين» بين النقد والبلاغة ، وكان مما وجهني إليه وحفزني إلى الكتابة فيه ، أني قرأت كتاب الدكتور محمد مندور (النقد المنهجي عند العرب) . فهالني بل روعني أن يكون في القرن الرابع الهجري — وهو أم القرون وأحفلها بجلائل الأعمال في جميع أنواع المعرفة عند العرب — رجل بتلك الصفات وهذه النعوت التي أضافها إليه الدكتور ، وقلت : ألا يمكن أن يكون في العرض من جانب الدكتور لأبي هلال ظلم للرجل وتحامل عليه ؟ وعلى فرض أنه بهذا الفساد وذلك الانحراف ، ألا يمكن الاعتذار عنه !

وكان أن عولت على لقاء أبي هلال في كتابه والاستماع إليه ثم التحدث عنه بما يثبت حكم الدكتور أو ينقضه كيما أذهب من نفسي قلقها وأردها إلى شيء من الاطمئنان

وسيتبين القارئ منهجي في البحث : أما إجماله فهو أني قد جعلته ثلاث مراحل : الأولى : — تمهيد للقاء أبي هلال ، وذلك أني أحببت أو رأيت أنه لا ينبغي لمن يتصدى للقاء العظماء أن يكون جاهلا بطبيعة عملهم ونواحي العبقرية والنبوغ عند غيرهم في هذا العمل . فكان هذا الإلمام السريع من جانبي بنشأة البلاغة والنقد وتطورهما إلى عهده . ومنه وقفت على تشابه نشأتيهما بل على وحدة الظروف التي خلقتهما ؛ وإذاً فليس من الغريب أن يلتقيا في تطورهما أكثر من مرة على أيدي رجال موزعين بينهما أو قد أحاطوا بهما فتكلموا فيهما على اختلاف في الميل إلى أحدهما أو زيادة في الاهتمام به . والمرحلة الثانية : هي الاختلاف إلى أبي هلال والتردد عليه ، بل مصاحبته مصاحبة شديدة في أبواب الكتاب العشرة وفصوله الثلاثة والخمسين أستمع إليه فأفهم عنه وأعنون له . ولم أنس أني إنما سعيت إلى لقائه لأحق حقا أو لأبطل باطلا . فلم يغب عني وأنا في حضرته ما قاله : صاحب (النقد المنهجي) فيه . وكثيراً ما قررت كلام صاحبي أو ترجمته موضحا عبارته ، مستخلصا فكرته ، واضعا إياها في ميزان النقد العام فإذا بها تثقل وترجح ، بينما ميزان الدكتور قد شال بها وخف

لهذا بعد أن فرغت من لقاء أبي هلال ووددته قمت بعملية تجميع للتهم التي وجهها إليه الدكتور مندور وناقشتها واحدة واحدة وتلك كانت المرحلة الثالثة

وكانت الخاتمة ، فنبهت إلى أن أبا هلال وإن كان قد تكلم

المشركين .. يسير مزهوا يميل برأسه تيها وكبرا . فانقض عليه وضرب بسيفه قوائم فرسه فوقع على الأرض يصيح ، وحنظلة يريد ذبحه ، ولم يكد يرفع السيف ليهوي به على هامة أبي سفيان ، حتى أدركه (الأسود بن شعوب) فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ولكنه وثب كالأسد ومشى في الرمح وقد أثبته ، فعاجله الأسود بضربة ثانية فخر صريعا

وقبل أن يغمض عينيه .. تذكر عروسه وهي تبتسم له وتقول : سيتحقق حلمك ياحبيبي . . ورآها وقد انحدرت من مقلتيها دمعتان … ولم تفارقها ابتسامتها .. ورأى رسول الله يقبل نحوه … فتعلق بالحياة وهم أن ينهض لاستقبال رسول الله ولكنه وقع على الأرض … وقبل أن تفيض روحه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأترابه … بصوت تقطعه الحسرات ..

« إن صاحبكم هذا تغسله الملائكة »

جبلة — سوريا عمر عروة الخطيب

فى البلاغة والنقد وجمعهما بل ومزجهما فى كتاب فليس هو بدعا فى هذا، لا فى تاريخ النقد العربى ولا فى تاريخ النقد العام

البلاغة والنقد ووظيفتهما

البلاغة بمعنى الكلام البليغ هى الأدب، وهى بهذا الاعتبار مادة البحث وموضوعه للبلاغة الاصطلاحية والنقد الأدبى. ولن أتعرض لها هنا من هذه الناحية، كما لن يكون من همى أن أتتبع تلك التعريفات التى أوردها أبوهلال فى صدر كتابه وعلق عليها شارحا موضحا. بل يعنينى من البلاغة ما كان يفهم قديما، وما يفهم الآن من كلمة (البلاغة). أعنى هذه القواعد وتلك التقاسيم التى كونت هذا الثالوث الضخم (المعانى والبيان والبديع). ووظيفتها: — أنها ترشدنا إلى أحسن الوسائل التى تجعل كلامنا محتما ناصا مؤثرا

أما النقد الأدبى فهو: «من دراسة النصوص وتمييز الأساليب» (١). ووظيفته «تقويم العمل الأدبى، وتحديد مكانه فى خط سير الأدب» (٢) فكل منهما يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال فى الإنتاج الأدبى

«نشأة البلاغة وتطورها الى عهد أبى هلال

من حسن فهم أبى هلال لطبيعة الأشياء هذا النص الذى نقله عن مجموعة التحفة البهية الدكتور زكى مبارك: «البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة، ولا على ملك دون سوقة، ولا على لسان دون لسان. بل هى مقسومة على أكثر الألسنة. فهى موجودة فى كلام اليونان وكلام الفرس وكلام الهند وغيرهم. ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب ولهم أيضا متفاوتون فيها. فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربتها. فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها وقد يحسنها الصبى والمرأة» (٣)

والبلاغة التى يقصدها أبو هلال فى هذا النص هى (الملكة) أى القدرة على تأليف الكلام البليغ. وهى قديمة جدا قدم الأدب. بل ليست هذه الآداب إلا آثارها ودلائل وجودها. ولقد وجدت الآداب منذ وجدت الجماعة. وكان لهذه الجماعة تحضر وتمدن وعقيدة

أما الاتجاه إلى دراسة هذه الآداب بقصد نقدها واستنباط قواعد البلاغة منها فهذا ما تأخر ظهوره واختلفت مظاهره عند كل أمة وفى كل أدب حسب الظروف والملابسات

أما عند العرب فقد نزل القرآن بلغتهم الأدبية وفيه كثير من الأنواع البلاغية؛ لكنهم ما كانوا يحتاجون فى فهمه وتذوقه إلى علم أو معلم لأنهم بلغاء بالطبع

لكن الدين قد انتشر ودخل فيه خلق كثير من غير العرب بدأوا يقرأون القرآن فيلقاهم منه من الكلمات والآيات ما يعجزهم فهمه ويعز عليهم تأويله. ولهذا رأينا منهم من يسعى إلى بعض علماء العربية (أبى عبيدة سنة ٢٠٦ هـ) يسأله فى معنى قول الله «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» (٤) فيجيبه بما هو من صميم العربية ومألوف استعمالها

«هذا نظير قول امرئ القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولكن هذا العالم الجليل لايدع الموضوع يمر دون التفات منه لحاجة الناس إلى بيان فيه فيؤلف كتابه (مجاز القرآن)

وتكون هناك محاولات وابتداءات تظهر فى شكل رسائل أو مقالات، وتنشط هذه الحركة وتنمو، ويزداد سلطان المعتزلة، ويترجم منطق أرسطو فيتصلون به وبالفلسفة اليونانية؛ ويعجب الفرس وغيرهم بهؤلاء المتكلمين الذين يحكمون العقل والمنطق فى جدلهم وحوارهم فينحازون لهم وينضمون إليهم

وتروج هذه الثقافة وتشيع فتزدهر البلاغة وتنمو

حتى إذا جاء القرن الثالث، عرف بجمع المادة الأدبية وعرضها فى أبواب تنقصها الطريقة العلمية ولكنها موصلة إليها

فهذا «الجاحظ» (٢٥٥) يبتدئ به البيان ويكتب فيه ويجمع له مادة غزيرة، متعقبا بعضها أحيانا بنقد يعتبر أساسا للبلاغة وللنقد المنظم فهو يتحدث عن الفصيح وعن الفصاحة، ويفرق بين الفصاحة بمعنى البيان، وبين البلاغة بمعنى الوصول

(١) فى الميزان الجديد — مندور ص ١٣٢
(٢) النقد الأدبى — السيد قطب ص ٥
(٣) النثر الفنى ج ١ ص ١٠٠ المرحوم زكى مبارك
(٤) الأدب العربى وتاريخه ج ٢ ص ١٨٧ المرحوم محمد مصطفى

إلى الغرض ؛ ثم يعرض لتعريفات عدة فى البلاغة عند العرب ، وعند غيرهم ممن لهم بالعرب اتصال جغرافى أو ثقافى

ويعمل جهده فى التدليل على أصالة البيان العربى وأنه للعرب خاصة ، ويتكلم فى الأسجاع ما يحسن وقعه منها وما يسوء مع التمثيل لهذا وذاك ، ويطوف فى بيانه وتبيانه على الشئ الكثير من الأنواع البلاغية ، وقد يؤرخ لها ويقارن بينها ضاربا الأمثال من القرآن والسنة والشعر القديم والشعر الحديث . ثم هو بعد صاحب المذهب الكلامى

ويحق ما قيل من أنه أول باحث فى البلاغة ، ولكن أبحاثه لم تكن مبوبة مرتبة ، وإنما هى معلومات عابرة فتحت مغاليق هذا العلم

وبموت الجاحظ حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى كانت البلاغة قد استقرت عند أوليات الأمور التى تبحث فيها وتقنن لها ، وقد لخصها الدكتور طه حسين باشا أو عنون لها بالأمور الآتية :

١) الكلام على صحة مخارج الحروف ، ثم على العيوب التى سببها اللسان أو الأسنان أو ما قد يصيب الفم من التشوه

٢) الكلام على سلامة اللغة ، والصلة بين الألفاظ بعضها وبعض ، والعيوب الناشئة عن تنافر الحروف

٣) الكلام على الجملة والعلاقة بين اللفظ والمعنى ، ثم على الوضوح والإيجاز والإطناب ، والملاءمة بين الخطبة والسامعين لها ، والملاءمة بين الخطبة وموضوعها

٤) الكلام على الخطيب(٥)

أما النصف الثانى من القرن الثالث فقد ظهر فيه علمان من أعلام البلاغة ، ترك كل منهما فيها من الآثار ما جعلها تنقسم إلى قسمين أو تسير فى اتجاهين : أحدهما عربى صرف أو هو أقرب أن يكون عربيا صرفا ، والثانى منطقى صرف أو هو أقرب أن يكون منطقيا صرفا :

فأما أولهما : فهو عبدالله بن المعتز (٢٩٦هـ) فهو ما تلا الجاحظ واهتدى بطريقته وجمع من فكرته مع زيادة عليها ما ألفه وسماه (البديع) وجعل منها خمسة أنواع أصيلة عند العرب القدماء

٥) مقدمة نقد النثر ص ٧ ، ٨

وليست مبتكرة ، يرد بذلك على المحدثين الذين ادعوا اختراعها والسبق إليها وهى :

الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى

وتطغى هذه الأنواع على غيرها فى كتابه ، لأنه يبدأ بذكر الخاصية ثم يورد أمثلة لها من القرآن والحديث والشعر ، ويعقب على هذا بذكر ما عيب من استعمالها

ثم بعد ذلك يذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، وهى كثيرة يجتزئ منها بالآتى : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، الخروج من معنى إلى معنى ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف ، هزل يراد به الجد ، حسن التضمين ، التعريض والكناية ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، إعنات الشاعر نفسه بالقوافى ، حسن الابتداءات

والناظر فى موضوعات كتاب (البديع) يرى أن علوم البلاغة : (المعانى والبيان والبديع) لم تنفصل بعضها من بعض ، ولم توضع لها حدود تميزها . فإن المؤلف ساق أبواب البيان الثلاثة وهى الاستعارة والكناية والتشبيه مساق الأنواع البديعية فى كتابه

وأما ثانيهما : فهو قدامة بن جعفر (٢٧٥ — ٣٣٧) ، كان نصرانيا ثم أسلم ، درس الفلسفة والمنطق ، وألف كتابا سماه (نقد الشعر) . يقول أستاذنا الكبير طه حسين باشا : « إن هذا الكتاب قد استغله كل مؤلف جاء بعده ، وعندما نقرأه نحس من أول فصل أننا بإزاء روح جديد لا عهد لنا بمثله من قبل » (٦)

وقد ألم قدامة فى كتابه بعشرين نوعا من أنواع البديع ، توارد مع ابن المعتز فى سبعة منها وانفرد بثلاثة عشر

ونلاحظ هنا ما لاحظناه سابقا ، وهو أن العلوم الثلاثة لا زالت مختلطة

وهنا نجد أنفسنا بصدد أبى هلال العسكرى وكتابه (الصناعتين)

فلنعد الآن من حيث أتينا ، ولنسر هذا الشوط مرة أخرى كما نؤرخ للنقد

٦) مقدمة نقد النثر ص ١٦

يتبع

عبد العزيز قلقيلة